الرواية العربية و الصحراء

اختلف مفهوم النقاد و الدارسين للرواية باختلاف توجهاتهم الفكرية و ميولاتهم الإيديولوجية و الفترات الزمنية المصاحبة لنشأة المناهج النقدية و تطورها ،و قد تمخض عن هذا الاختلاف تعريفات لا تحصى و لا تعد .

و لعل التعريف الأسهل الذي يتبادر إلى ذهني من أول وهلة هو أن الرواية " جنس أدبي ،منثور، طويل نسبيا "و هذا التعريف، على بساطته ،يحمل ما يحمل من دلالات لا تنفك تكشف عن نفسها ذلك أن هذا التعريف يحيل مباشرة إلى إشكالية الأجناس الأدبية ،فالقول أن الرواية جنس أدبي معناه أنها تصبح تماثل الشعر و المسرح و المناجاة و الملهاة و الملحمة و القصة قيمة و منزلة ، فكل ما ذكر من الأجناس الأدبية قائم بذاته ،و كل منها ظفر بقواعد و أصول ميزته عن بقية الأجناس الأخرى، و الرواية كذلك لها من القواعد و الأصول ما جعلها تتميز عما عداها من الأجناس الأدبية المعروفة ،و هذه القواعد تفردها في دنيا الأدب ،فتستحيل فنا قائما بنفسه ، و لكن الإشكال أن الرواية تلتقي مع الشعر في لغته و مع الملحمة في طولها و مع المسرحية في بعض من تقنياتها .و لذلك فالرواية تحمل من خصائص الأنواع الأدبية التي سبقتها في النشأة، و خاصة السردية منها ، و تلتقي مع الأنواع الشعرية في لغتها [1] .

و لعل تاريخ الرواية يرتبط بالمجتمع الأوروبي الحديث، و بطبقة معينة فيه هي الطبقة الأرستقراطية، و يؤكد ذلك قول "جورج لوكاتش"-Georges Lukacs - بأنها « ملحمة برجوازية»[2]

و في هذا ارتباط وثيق الصلة بين هذا الفن و هذه الطبقة التي اتخذت لنفسها الرواية وسيلة تعبير عن أفكارها و هو ما ترجمته أعمال كثيرة لستاندال-STANDHEL- و فلوبير-FLAUBERT- و زولا -E.ZOLA-و غيرهم .

---

[1] أنظر فيصل دراج :الرواية و الرواية العربية: المركز الثقافي العربي،بيروت ، لبنان ، ط1 ،1999،و عبد الملك مرتاض:في نظرية الرواية، (بحث في تقنيات السرد) سلسلة كتب بصدرها المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، ديسمبر ، (د،ط) 1998.و عبد الله إبراهيم : السردية العربية الحديثة (تفيك الخطاب الاستعماري و إعادة تفسير النشأة) ،المركز الثقافي العربي،الدار البيضاء ، المغرب ،ط1 ، 2003.

[2] جورج لوكاتش : نظرية الرواية و تطورها ،ترجمة نزيه الشوقي ، ط1، دمشق ،سوريا ، 1978، 19.

و في ما يخص الرواية العربية، فقد لاحظت أن جميع المراجع تكاد تتفق على عدها ثمرة التقاء الثقافة الغربية و الأوروبية منها على وجه الخصوص ، و لقد كان لجملة الأسباب التاريخية و الثقافية و الفنية و الجمالية الأثر الكبير في معرفة الأديب العربي فن الرواية ،التي لم تكن معروفة بشكلها لديه في تراثه الأدبي و الفكري .

أما عن مسيرة روايتنا العربية ،فيمكن في نظري تقسيمها إلى مرحلتين ، بحثت في المرحلة الأولى عن معالم لرواية عربية متخذة من الرواية الغربية الأنموذج الأمثل، و الذي غاب بمقتضاه جنس روائي عربي خالص ،و هذا بتأكيد الدارسين الذين أجمعوا على أن « الرعيل الأول لم يكونوا روائيين محترفين ،بل كانوا مجربين أكثر منهم حرفيين و أن التأثر بالآداب الأجنبية لا يؤتى ثماره سوى في الرعيل الثاني و قد لوحظ أن اتصال الرعيل الثاني من الكتاب يكون عموما اتصالا غير مباشر بالحضارة الأجنبية و هذه الظاهرة تكررت في كثير من بلاد العالم الثالث »[1]

و في المرحلة الثانية ،و مع الرعيل الثاني الذي شهدت معه الرواية العربية تحولا كبيرا إما على المستويين :الموضوعي و التقني ،استطاعت الرواية العربية أن تحقق لنفسها المرونة و المصداقية في الآونة الأخيرة بفضل معالجتها جملة من القضايا الاجتماعية و الثقافية و الفكرية لواقع حال المجتمعات العربية التي شهدت تغيرات على مستوى البنى التحتية و الفوقية «عبر تحويل اللغة من قواعد و تعبيرات جاهزة إلى لغة مستوعبة لمظاهر التبادلات الشاملة انطلاقا من طرائق العيش إلى الوعي بالهوية و مشكلات المثاقفة (...)و كانت الترجمة و الصحافة ثم تأسيس الجامعات هي الوسيلة التي طوعت اللغة العربية و مهدت لها طريق ارتياد التخييل الروائي و تأكيد الانتساب لهذا الجنس الجديد الذي استمد عناصره الأولى من الرواية الغربية في القرن التاسع عشر أكثر مما استمدها من الموروث القصصي العربي »[2]

و اهتمت الرواية العربية في المرحلتين بفضاء المدن –و إن لم يكن بنفس المستوى – اهتماما ملحوظا ،وتترجم كثرة الأعمال الروائية ذلك ،حيث راحت تتبع بعناية واضحة ظهور المدن ،و الحياة السريعة المليئة بالتناقضات و التغيرات التي مست كل الجوانب ، فعالجت قضايا المجتمع و وضع المرأة فيه و علاقتها بالرجل و نظرته و نظرة المجتمع إليها ، و تمثل –هنا

---

[1] سيزا قاسم : بناء الرواية (دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ) الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، مصر ، (دط) ،1984،ص17.

[2] محمد برادة :أسئلة الرواية ،أسئلة النقد ،حوار متخيل ؟مجلة آفاق ،اتحاد كتاب المغرب ، ع1 ، 1989،ص37 .

بجدارة روايات المدن أو روايات الواقع الاجتماعي بمختلف تجلياته- أعمال الأديب المعاصر ، نجيب محفوظ فـ«كلها روايات تمثل لوحات منسوجة بدقة لواقع المجتمع العربي » [1]

شهد الوطن العربي ،في بدايات القرن العشرين ،نموا سريعا لمدنه كما شهد ظهور مدن لم تكن موجودة من قبل على الخريطة الجغرافية. و لقد أعطت هذه المدن في مقابل هذا النمو مادة دسمة للرواية العربية تمثلت في معالجة روائيينا مشاكلها و طموح سكانها الذين تزايد عددهم بتزايدها و لم تخرج – في اعتقادي- دلالات هذا التوظيف عن بؤس الواقع العربي ،و فوضى الأفكار الوافدة من الخارج ،و اضطراب المجتمع من حيث سلوكات أفراده الراغبين في تحسين أوضاعهم المعيشية التي شهدت تدهورا مستمرا، في مقابل ظهور فئات اجتماعية ،وجدت لها مكانا في المجتمع على حساب فئة الكادحين، التي أصبحت تعيش في منافي الأوطان ،لتمارس هذه الفئة قهرا آخر يضاف إلى سلسلة المعاناة الطويلة و المريرة لأفراد المجتمع العربي ، و ما كان روائيونا ليقفوا متفرجين على الأوضاع المزرية لمجتمعاتهم ،بل إنهم حملوا أنفسهم مهمة تعرية و فضح المسوؤل عن القمع النفسي و الاجتماعي و الاقتصادي ، سواء ما تعلق منه بالسلطة ،أو بالترسبات الثقافية و الفكرية و التاريخية التي شكلت سلطة ثانية ،أسهمت ،و لحد كبير، في تسبب ما بات يعرف بالكبت بأنواعه (و خاصة الاجتماعي) .

كما وجد الروائيون العرب ،في فضاء الأرياف و القرى الذي تقطنه الغالبية الكبرى من السكان ،موضوعا آخر لأعمالهم ،و خاصة في مرحلة ما بعد الاستعمار ، فقد« وجدوا في وضع الفلاحين في الريف و استغلالهم في ظل النظام الإقطاعي التقليدي موضوعا واضحا و جاهزا » [2]

جعل الكثير من الروائيين ،إذن ، من فضاء القرى مسرحا لأحداث رواياتهم مثل يوسف القعيد، و عبد الرحمن الشرقاوي ،و نجيب محفوظ ،و الطاهر وطار ،و البشير خريف ...الخ ،و نجحوا إلى حد كبير في تسليط الضوء على ثقافة القرى العربية في موقفها من المدنية

---

[1] روجر ألان: الرواية العربية (مقدمة تاريخية و نقدية) ترجمة حصة إبراهيم المنيف ، المجلس الأعلى للثقافة ، طبع بالهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية ، (دط) ، دمشق ،سوريا ، 1987.، ص119.

[2] روجر ألان: الرواية العربية (مقدمة تاريخية و نقدية)، ترجمة حصة إبراهيم المنيف، ص140.

الجديدة وحفاظها على التقاليد ،و مدى التزامها بقوانين الأجداد الصارمة التي تقتضي من الجميع احترامها حتى ما تعلق منها ببعض السلوكات السلبية مثل الثأر .

كما رصدت الرواية العربية التغيرات الكبيرة التي شهدتها بنية أكثر المجتمعات العربية على إثر اكتشاف النفط في صحاري الوطن العربي ، مشرقا و مغربا ،و هنا يظهر فضاء الصحراء بوصفه فضاء مختلفا تماما عن فضاء المدن و الأرياف ، هذا الفضاء سيشكل تدريجيا ما بات يعرف برواية الصحراء و هي تلك الأعمال التي تتناول الصحراء موضوعا للكتابة و منظورا تعبيريا، و قد تكون« صحراء الكتابة تعني اكتشاف منطقة جديدة و خصبة في جغرافية الكتابة ، تفتح بلا شك آفاقا خصبة أمام إشكالية الكتابة في اقتصادياتها ،في أسئلتها، في بحثها عن هذا الشيء الغامض الذي يفتقده الإنسان المعاصر» [1]

و اهتم بهذا النوع من الكتابة الجديدة مجموعة من الروائيين كانوا قد انتبهوا إلى خصوصية المكان لا بوصفه عنصرا من عناصر البناء الروائي فقط، لكن بوصفه عنصرا جماليا سيسهم في إكساب الرواية و الفكرة التي تقوم عليها أبعادا فنية ،تزيد من قيمة الرواية و أهميتها.

ولعل الشيء المميز في هذه الكتابة ذلك التحول الكبير في الفضاء الذي أفقد الإنسان مركزيته ،و دوره الرئيسي الذي تراجع أمام الصحراء ،التي أصبحت هي المركز ،و ما عداها هو الهامش ،بما في ذلك الإنسان ذاته، الذي تعادل دوره مع كائنات الصحراء المختلفة ،و هذا على خلاف رواية المدينة التي برزت فيها ذاتية الإنسان ،و بالتالي مركزيته في مقابل كل شيء يحيط به ، و كأن كتابة الصحراء أدارت ظهرها لسلبية الفضاء الأول ،الذي حول اليومي إلى جحيم ، و الذي عد فيه الإنسان البسيط بطلا لا لعلة إلا لأنه تحصل على قوت يومه .

و ينطوي هذا التحول اللافت للنظر – من رواية المدينة إلى رواية الصحراء– على رغبة دفينة تتمثل في رفض الخطاب الروائي الغربي ،الذي خرجت من عباءته الرواية العربية ، مما يعني إدراك الروائيين العرب ضرورة البحث عن خصوصية ،قد يمثل الابتعاد عن متخيل المكان المديني –الذي ارتبطت به نشأة الرواية الغربية– أحد أهم علاماتها على الرغم مما يكتسيه من أهمية.

---

[1] حسن المودن ، الكتابة و الصحراء .http : //www.geocities .Com .

و ربما أستطيع إضافة بعض الأسباب التي أدت لانحياز الكثير من الروائيين العرب للصحراء أذكر منها :

1-الرغبة في تأسيس نمط كتابة عربية أصيل ، ينطلق من الأرض العربية.

2-الإيمان الكبير في أن الانطلاق من المحلية يشكل ظاهرة صحية لكل أدب أصيل يحترم نفسه.

3-تثمين التراث العربي بكل أبعاده :

أ-الدينية (الصحراء كمقدس مذكورة في القرآن الكريم و التوراة و الإنجيل)

ب-الجغرافية (تشكل الصحراء القسم الأكبر من مساحة الوطن العربي)

ج- الأدبية (ارتباط الشعر الجاهلي مثلا بالفضاء الصحراوي)

د- الاجتماعية (الصحراء هي الموطن الأول الذي شكل فيه الإنسان العربي شخصية و قيمه)

هـ- التاريخية (كانت الصحراء شاهدة على جميع انتصاراته و انتكاساته على مر العصور)

و- السياسية (تكالب الدول الغربية مثلا على الذهب الأسود)

فالصحراء بكل أبعادها تمثل عمقا تاريخيا (الماضي)و امتدادا تراثيا (الحاضر و المستقبل) .

4-رحابة المكان و شساعته التي توفر فرصا أكبر للتفكير و التأمل.

5-في الصحراء موروث ثقافي شفوي هائل يمكن استثماره كالأساطير و العقائد و السلوكات و العادات و التقاليد و الشعر و السحر و الجمال ، فالصحراء مليئة بالاستعارات و التعابير الجميلة فهي في هذا الموضع تمنح طاقات تعبيرية كبيرة جدا ، لما تتوفر عليه من مواضيع جديدة للقص أبرزها ما تتكئ عليه من تراث أسطوري و عقائدي يضرب بجذوره في عمق التاريخ فهي ،إذن ،تعطي إمكانية لتجديد آليات القص التي بدت بوجود الصحراء أكثر أصالة ،أي هذه الآليات التي احتوت أبعاد الصحراء الدينية و الأدبية والاجتماعية و التاريخية و السياسية بفنية عالية برهنت على أن الصحراء ليست مجرد مكان بل هي ثقافة و هوية و انتماء.

و ربما يمكن تفسير تأخر ظهور هذه الأعمال بالأوضاع السياسية و الفكرية التي مرت بها الأمة العربية في عصرها الحديث، و التي تكون قد حالت دون الانتباه إلى الفضاء الأم

،فتوجه بذلك الروائيون العرب إلى فضاء المدن و حياة الحضر و الغوص في مشاكلها و قضاياها، سيرا على خطى روائي أدباء الغرب ،و لم يتم الالتفات إلى فضاء الصحراء إلا في مرحلة شبه الاستقرار السياسي مع مجموعة من الروائيين الذين حاولوا التحول إلى الصحراء للكشف عن النفس العربية الجريحة للبحث عن تاريخ و هوية الأنا العربية ، التي تحاول ،بالدراسة العميقة ، أن تكتشف هذه الصحراء و تتقصى أسرارها و مكنوناتها ، تأكيدا على أن اختلاف هذا الذات عن مثيلتها الغربية يبدأ من هنا ، من هذه الصحراء التي لن تصبح بمقتضى هذا المنظور مجرد عامل اختلاف، بسيط و إنما تشكل عمقه التاريخي و الحضاري .

إن الواقع البيبليوغرافي يكشف أن رواية الصحراء مرت بمراحل؛ فقد بدأ ظهورها شاحبا و ضئيلا في الكثير من الأعمال الروائية، ثم تحول هذا الضمور إلى حالة كتابية شاهدتها عند البعض من روائيينا الذين تخصصوا في رواية الصحراء .

و من الروايات التي تمثل المرحلة الأولى، و التي لمست فيها حضورا هامشيا للصحراء أذكر رواية جبرا إبراهيم جبرا "البحث عن وليد مسعود " [1] فالصحراء في هذه الرواية لم تكن موضوعا للمتخيل الروائي، بل كانت قضيتها عرض مسيرة المناضل الفلسطيني "وليد مسعود" في رحلة بحثه عن الحرية في الصحراء العراقية كما توضحها شهادات مريم الصفار و وصال رؤوف و جواد حسني ..الخ و قد حالت هذه القضية دون أن « تعكس روح الصحراء العراقية و لم تعن بتصويرها كمكان ، فالمكان المحوري أو الأمكنة المحورية كانت في بغداد و المنازل و البيوت في المدن الأخرى» [2]

و لم تكن الصحراء الموضوع الرئيس في رواية التونسي البشير خريف "الدجلة و عراجينها" و إنما كان فضاؤها مضمنا فيها كما يوحي به العنوان «فهي توحي في عنوانها بأنها تصور كفاح سكان إحدى الواحات التي تتوضح عزلته و بعدها في اللهجة المحلية التي يستعملها الكاتب في كتابتها » [3]

---

[1] جبرا إبراهيم جبرا : البحث عن وليد مسعود ،دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1978.

[2] صلاح صالح : : الرواية العربية و الصحراء ، منشورات وزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية ،دمشق ، سوريا ، ط1 ، 1996، ص51.

[3] روجر ألان: الرواية العربية (مقدمة تاريخية و نقدية) ترجمة حصة إبراهيم المنيف، ص141.

و كذلك هي الصحراء في رواية "ريح الجنوب" [1] ،فأحداثها جرت في الريف بمنطقة قريبة من الهضاب العليا بين شمال الوطن و جنوبه الصحراوي ،و الرواية كما هو معروف تعبر عن مرحلة انتقالية جسدتها شخصية "نفيسة" في تاريخ الجزائر،و لم تظهر فيها صورة الصحراء سوى في رياح القبلي الآتية من الجنوب ،و التي رمز بها إلى التغيير.

و أما رواية السوداني الطيب صالح "موسم الهجرة إلى الشمال" [2] فهي الأخرى لم تهتم بالصحراء إلا في حدود الوصف الذي قدمه الراوي أثناء سفر مصطفي سعيد إلى القاهرة ،و قد خصص له فصلا كاملا ،أطلع فيه القارىء على البيئة الصحراوية .كما ذكرت الصحراء في بعض المقاطع الوصفية التي أبرزت قساوتها ،و مثلها حديث الراوي عن صلابة جدة و صبره و جلده و شموخه، تلك الصفات الجميلة و المحببة التي استعارها من نباتات الصحراء.

و أما الصحراء في رواية الفلسطيني غسان كنفاني"رجال في الشمس"[3] ، الذي سيطرت على أعماله الروائية القضية الفلسطينية ،بدا فيها اهتمامه بموضوع الصحراء هامشيا في مقابل مركزية قضية وطنه ، و على الرغم من ذلك فإن الصحراء في رجال في الشمس ، تكتسب دلالات الفضاء الطارد و المعادي لثلاثة فلسطينيين قرروا الوصول إلى الكويت عبر البصرة عن طريق الاختباء في خزان ماء لأحد السائقين، و قد ترتب عن ذلك نهاية مأساوية لهم غير متوقعة تسبب فيها حر الصحراء و قيظها الشديد و الضمأ، إضافة إلى تأخر السائق عند نقطة تفتيش على الحدود الكويتية بسبب إجراءات روتينية ،كل هذا كان كافيا لأن تكون الصحراء ،في هذه الرواية، رمزا للموت.

وعلى خلاف هذه الدلالة فإن "كنفاني" يكون قد منح الصحراء في رواية "ما تبقى لكم" سمات الفضاء الأليف و الرحب الذي ساعد "حامد" بطل الرواية على التأمل و التفكير و التغلب

---

[1] عبد الحميد بن هدوقة :ريح الجنوب ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، الجزائر ، ط3 ، 1976.

[2] الطيب صالح :موسم الهجرة للشمال : دار العودة ، بيروت ، لبنان ، (دط) ،2006.

[3] غسان كنفاني : رجال في الشمس ، مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، ط2 ، 1980.

على خوفه من العدو الإسرائيلي.و أما الروائي الأردني "إبراهيم نصر الله" فقد رسم في روايته "براري الحمى"[1] صورة قاتمة عن الصحراء ،و ذلك حينما جعل أحد المدرسين يموت في منطقة "عسير" الصحراوية بسبب بعد المكان و قساوته الذي اكتسب دلالات الفضاء المعادي الغارق في القتامة .

و تتفوق رواية صبري موسى"فساد الأمكنة "[2] للروائي المصري على الروايات السابقة في احتفائها بالصحراء فموضوعها يجري في صحراء مصر الشرقية و تحديدا في جبل "الدرهيب" الذي حل به "نيكولا" الهارب من قمع الشيوعيين الروس، و في هذا المكان يغتصب الملك ابنته فتنجب طفلا ،و عندئذ يصاب "نيكولا" بالانهيار فينتهي و ابنته نهاية تراجيدية .

و يلخص صلاح صالح جمالية توظيف الفضاء الصحراوي ،في هذه الرواية في «قدرتها على استثارة عدد كبير من القضايا الفكرية و الفنية و التقنية المتعلقة بالصحراء و بالمكان في آن واحد »[3]

و بعد هذه المرحلة –التي كانت فيها الصحراء موضوعا هامشيا زيادة على أن الروائيين لم يُعرفوا فيها بتخصصهم في الكتابة عنها– تبرز مرحلة التشكيل الفني في رواية الصحراء مع الروائي العربي الكبير ،"عبد الرحمن منيف" و الروائي الليبي "إبراهيم الكوني" ،فقد شهدت معهما الكتابة حول الصحراء نقلة نوعية من خلال التخصص بإنجاز مشاريع روائية بأكملها أصبحت علامة على مغامرة جديدة دخلتها الرواية العربية ،تمردت فيها على التقنيات الثابتة، و أثبتت عدم تبعيتها للرواية الغربية بالبحث الدائم عن شكل و موضوع أصيلين ، و قد وفرتهما لها الصحراء التي أصبحت مكان النص و معناه ، مما يدل على أن : « الاختلاف بين الرواية العربية و الرواية الأوروبية ليس اختلافا في النظر إلى العالم ، بل هو تميز في المواضيع و التجارب و الأدوات التقنية »[4]

و أما بالنسبة لـ"عبد الرحمن منيف" فقد تمكن من تغيير أنظار قراء العربية من رواية المدينة إلى رواية الصحراء ببراعة في خماسيته الملحية[5] ،مؤكدا على شيئين أساسين، أولهما قدرة

---

[1] إبراهيم نصر الله :براري الحمى ،مؤسسة الأبحاث العربية ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1985.

[2] صبري موسى : فساد الأمكنة ، دار التنوير و دار المثلث ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1985.

[3] صلاح صالح : الرواية العربية و الصحراء ، ص235.

[4] فيصل دراج : نظرية الرواية و الرواية العربية ص5 .

[5] عبد الرحمن منيف :مدن الملح : –التيه:المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، لبنان ، 1984.

الرواية على التحول و استيعاب كل الأمكنة ،و ثانيهما ما منحته الصحراء له من طاقات أكبر للتعبير عن مكنونات النفس البشرية .

و الواقع أن صحراء "عبد الرحمن منيف" أقرب إلى المدينة، لأنها تحكي أسطورة ظهور المدن العربية الحديثة على إثر اكتشاف النفط ،و تحكي قصة تلك المدن الملحية ،التي شيدها الغرب على حساب البيوت العربية القديمة ،و خماسيته تؤكد على أن الصحراء ،في هذه الكتابة ليست مكان عابر ،بل هي تجربة تعبر عن الاختلاف الذي يرمز به إلى الهوية و الأصل ، هي تجربة شديدة الخصوصية ، بالغة التعقيد، تنقل بداوة الصحراء بأسلوب جذاب يكشف عن أنماط التفكير و سلوكياته الغارقة في الأوهام و الخرافات، كما ترصد الراهن العربي الثقافي انطلاقا من المكان و ذلك في مقابلة شيقة بين الطبيعة (الصحراء) و الثقافة (المدن) فقد أعطاه هذا الفضاء الخاص القدرة على تشكيل شخصيات مختلفة : الصحراوي و البدوي ،و العادي و الأمير ، و الوطني و العميل ،[1] شكلها بلغة عربية فصيحة و بسيطة في الوقت نفسه و عميقة ،و قد نجح من خلال هذا الفضاء دائما في تقديم تقنيات سردية للقص العربي الحديث، نقل فيها الشفهية إلى الكتابية و كانت نتيجة هذا النقل ثراء تجربته الروائية و غناها.

إن كتابة "عبد الرحمن منيف" كتابة عربية لحما و دما لا ينفصل فيها الشكل عن المضمون فهما وجهان لعملة واحدة ،و ربما يكون تعامله مع الصحراء فريدا ، لم يستطع أحد من قبله أن يكشف عنه بحكم ولادته و تخصصه في النفط ،الذي أعلن من خلاله تحيزه لكل قيم الصحراء ، حتى تلك التي تبدو متناقضة ،ربما لأنه أدرك أن دور المبدع يكمن في الكشف عن الذاكرة المقموعة على جميع الأصعدة :المحلية و الدولية .

و أما "إبراهيم الكوني" فقد استطاع هو الآخر، أن يشكل عالما روائيا خاصا به ميزته الأساسية أنه يحكي عن الصحراء الكبرى الإفريقية التي رفعت أعماله إلى مصاف روائع الرواية العالمية ذات المكانة المتميزة ،فهو يعتبر من بين الروائيين المتميزين ،إما على مستوى الكم أو

-الأخدود:المؤسسة العربية للدراسات و النشر ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1985.

-تقاسيم الليل و النهار :مطبعة العلم ،دمشق ، سوريا ، ط2، 1989.

-المنبت:مطبعة العلم ،دمشق ،ط2، 1989.

-بادية الظلمات: مطبعة العلم ،دمشق ،ط1989،2.

[1] أنظر صالح ولعة :البناء و الدلالة في روايات عبد الرحمن منيف ،مخطوط رسالة دكتوراه دولة ،قسم اللغة العربية و آدابها ،جامعة باجي مختار ، جامعة عنابة ،الجزائر ،2002.

الكيف ،فإنتاجه يتميز بالغزارة و الثراء ، وله أكثر من ستين إصدارا يتوزع ما بين رواية و نص ،و كل أعماله استقاها من مصدر الصحراء ، فمنذ سنة 1974 التي كتب فيها مجموعته القصصية "الصلاة خارج الأوقات الخمسة" و هو يجري وراء الصحراء الكبرى العارية منذ آلاف السنين ، باحثا عن الحقيقة ،السراب التي ظل يلاحقها بنهم لم ألحظ له مثيلا في المكتبة العربية،و ربما لهذا السبب احتفى الغرب بتجربة "إبراهيم الكوني" الروائية، ترجمة و دراسة، ومنحه جوائز دلت على أن الكُوني موجود كروائي في لغته و ثقافته و مكانه الطبيعي ، الصحراء ، فهو هناك الآن في المكان القصي يعيش بالقرب من بحيرة "تون السويسرية" حاضر بهويته و بانتمائه للمجتمع الطارقي ، إنه هناك لأنه قال ما يجب فقط أن يقوله كل فنان و مبدع أصيل ،و إلا فلماذا قُرأ هو منيف و غيرهم؟ هل يعقل مثلا أنهم ترجموا من خلفية إيديولوجية ، و هم أبناء الصحراء —التي تعد في عمقها فضاء معاديا للغرب –و رواياتهم هي روايات الصحراء بامتياز ؟ طبعا الجواب الأكيد في نظري هو ، لا.

و الذي لا شك فيه أن "إبراهيم الكوني" ،كمنيف ، يمتلك نصا جيدا أوصل صوت صحراء أجداده إلى الغرب، و هي تختلف عن صحراء منيف اختلافا كبيرا ، فهي شديدة الشبه بأساطير التكوين حيث إنه يحكي قصة ظهورها و تكوينها ، فهي عنده فضاء خاص جدا يرفض المدنية بمختلف أشكالها ، يلفظها محافظا على عذرية مدينته الفاضلة الصحراء ، محافظا على صفائها و طقوسها و ناموسها ...فهي ترتبط بالمقدس الأسطوري الخاص بمنطقة ثقافية شديدة الخصوصية في المجتمع الإنساني، هي منطقة الطوارق .في حين أن صحراء "عبد الرحمن منيف" ترتبط أكثر بالمقدس الاجتماعي و السياسي و الاقتصادي و التاريخي في صحراء شبه الجزيرة العربية ،التي تختلف في طقوسها و عقائدها و أساطيرها عن الصحراء الكبرى الإفريقية.و في الحالتين أو في التجربتين يكون «تراث الصحراء قد أثر كثيرا على المبنى و المعنى في الرواية العربية ،و عبر بقوة عن تنازعات التأصيل و التحديث و تمازجات المحلية و العالمية بما يشي بعمليات فهم التاريخ و وعي الواقع و استشراف المستقبل ضمن الأبعاد الذاتية العامة و الحضارية التي تحسن العلاقة مع الآخر» [1]

[1] عبد الله أبو هيف :تراث الصحراء في الرواية العربية ،إبراهيم الكوني أنموذجا)http : //www.geocities .Com

و فعلا فقد وجدت في أعمال روائي الصحراء أن الإنسان ، أي إنسان ،له فضاءه الخاص الذي لا يستطيع،بأي حال ،أن ينفصل عنه ، بل و قد يمثل هذا الفضاء الذات الإنسانية ، الشيء الذي يعطي كل فضاء ،مهما بدا وضعه، معنى مستمدا من مجموعة القيم الرمزية و الاجتماعية و الثقافية التي تنتمي إليها هذه الذات ،كما يعطيه أيضا وظيفة يضطلع بها انطلاقا من الدور الفعال الذي يلعبه الفضاء نفسه في حياة الإنسان ،و هذا ما يجعل سطوته على الذات تكاد تكون لامتناهية و لا محدودة بفعل استحالة تنصل الإنسان من فضائه الخاص جدا ،و هذه الحقيقة أطرت أعمال عبد الرحمن منيف و إبراهيم الكوني و غيرهم، و انعكست على الجانب التقني لأعمالهما التي ينسجم فيها الشكل مع المضمون ،و كأنهما يعبران عن تصالح الذات العربية مع فضائها الذي فقدت فيه الثقة بحكم العامل التاريخي و عوامل أخرى، أسهمت كلها في خلق فجوة عميقة بينهما فجرها روائيونا في مغامرات فنية رائعة ، كشفت ببراعة عن التناقضات التي تعتمل في واقعنا في سرد جذاب و بلغة بسيطة مرجعيتهما الوحيدة ثقافة الصحراء ،و تاريخها الطويل المليء بالمواعظ و العبر ، و المليء أيضا بالمكر و الخداع و الدماء ، تلك هي مسيرة هذه الكتابة التي يبقى "إبراهيم الكوني" و آخرون بعد رحيل "منيف" يواصلون ،من خلالها، الحفر في المسكوت عنه .